الشهيد البطل
أحمد عصمت

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

لقد اتخذت المقاومة الشعبية دور التجمهر والخروج دون نظام ضد الظالم الأجنبي فى أواخر العصر العثمانى وفى عهد الحملة الفرنسية وتمخضت عن زعامة شعبية عبر عنها (عمر مكرم) وخنقها (محمد على) ثم قامت من جديد على صفحات الجرائد وفى داخل مجلس شورى النواب ومن ورائهما الحزب الوطنى ، وحين اشتد الخطر غلب عليها الطابع العسكرى، وكانت تتلمس منفذا تتدفق منه فاختلف مظهرها باختلاف التطور الزمنى وباختلاف الظروف وإن كان الجوهر واحدا وهو حب المصريين لحريتهم ولوطنهم ، وتناوب عامة الشعب وطليعة المثقفين الأحرار البروز إلى الصف الأمامى بحسب الأحوال .

ثم جاء الاحتلال البريطانى فوقع الشعب جميعاً عامته ومثقفوه تارة تحت وطأة مرارة الهزيمة ، وتارة تحت وطأة اليأس وبلبلة الخواطر ، وتارة ثالثة تحت التقزز من الخيانة وضعف الطبيعة البشرية . وحين وقفت مصر على أقدامها مرة أخرى لم تجد أمامها فى هذه المرحلة سوى العودة إلى صحافتها الوطنية التى خلقت الأحزاب ؛ وكل له نظرته إلى (الطريقة) التى يمكن أن يتحقق بها نجاح الكفاح الشعبى ثم تخمر الوضع فى أعقاب ثورة ١٩١٩ بحيث أن الأحزاب قد انحرفت بالمقاومة الشعبية فكانت ثورة ١٩٥٢ امتداداً طبيعياً لشقيقتيها السابقتين وإن تكن أقرب إلى ثورة سنتى ١٨٨١ — ١٨٨٢ منها إلى ثورة عام ١٩١٩ بحكم تشابه الظروف فى الحالتين مع بعض الاختلاف فى التفاصيل .

فقد أعلن بادىء ذى بدء أن الاحتلال مؤقت ولكنه امتد بالرغم من كل ذلك حتى عام ١٩٥٦ ولم يمض على انتهائه رسمياً سوى بضعة أسابيع حتى حاول

العودة من جديد وهو يحسب أنه سينجح كما نجح فى عام ١٨٨٢ مع أن العالم ومصر قد تغيرا كثيرا فى هذه الفترة التى وقف الاستعمار فيها كما هو .

وإننا لاننسى أن كفاح مصر ضد أعدائها والغزاة كان كفاحا متصلاً لم تلق فيه أبدا سلاحها من يدها ،وربما تغير شكل السلاح أو اسمه لكن لم تتغير طبيعة المعركة ولاهدفها ولم تستكن مصر خلالها ولم تفن فى أحد الفاتحين . وإننا ونحن نقدم لقصة الشهيد البطل (أحمد عصمت) الذى استشهد فى يوم الرابع عشر من يناير سنة ١٩٥٢ نرى لزاما علينا أن نرهص لها بذلك الحادث الهام فى تاريخ مصر القومى والذى كان مرحلة جديدة من مراحل كفاح الشعب فى سبيل تحقيق أهدافه ذلك هو إعلان إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ فى يوم الاثنين الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١ وقد استقبلت البلاد إلغاء المعاهدة بالغبطة والحماسة وأبدت استعدادها للبذل والتضحية — شأنها فى الأوقات العصيبة — واستعدت الأمة بمختلف هيئاتها وطوائفها للكفاح . وتجاوبت مع الحكومة فى مجاهدة الإنجليز فى القنال وتجلت فى الشعب الروح الوطنية الثائرة التى ظهرت فى ثورة ١٩١٩ وقد أخذ المواطنون يعدون لهذا الكفاح عدته من تلقاء نفسه وكان فى الحق كفاحاً مجيداً : شعب أعزل من السلاح أمام قوات غاصبة مسلحة بأحدث معدات الفتك والقتال .

وتجلت بطولة الفدائيين فى مهاجمة المعسكرات والمخافر والمنشآت البريطانية فى منطقة القنال مما تردد صداه فى صحف العالم ، وكان من أقوى الدعايات لمصر ضد الاحتلال البريطانى ، فقد ترتب على إلغاء المعاهدة من ناحية الحكومة إلغاء جميع الإعفاءات المالية التى كانت ممنوحة للسلطات العسكرية البريطانية بمقتضى تلك المعاهدة ، أما من ناحية الشعب فقد اعتبر مركز الجنود البريطانيين مركز الغاصبين المحتلين لمنطقة القنال ؛ يجب محاربتهم حتى يجلوا عن البلاد ، ومن

هنا بدأ الكفاح فى القنال يتخـــذ طوراً إيجابياً .

أظهر الشعب بروح عالية وتقبل كل بذل وتضحية ولبى أول ما لبى عدم التعاون مع الاحتلال ،ومقاومته سلبياً وإيجابياً وظهر العمال الذين كانوا يشتغلون فى السكك الحديدية ، وفى الموانى ، وفى المعسكرات البريطانية بمظهر وطنى رائع وأخذت بريطانيا من ناحيتها تستعد لمواجهة هذا الكفاح؛فبادرت بإرسال قوات حربية جديدة إلى منطقة القنال .

وكانت المقاطعة التامة من عمال القنال مما كبد البريطانيين خسارة أكثر من مليونى جنيه فى أسبوع واحد ، وقد كان هذا الاضراب الجماعى من العمال برهاناً عملياً على أن قاعدة القنال لم تعد بالمنعة التى كان يظنها الإنجليز . وأن مركزهم فيها ســـيصبح محفوفاً بالمخاطر ، بين شعب معاد لهم ، مستعد للتضحية السلبية والإيجابية فى سبيل محاربتهم .

وقد قامت المظاهرات الشعبية ابتهاجاً بإلغاء المعاهدة (فى الإسماعيلية وبورسعيد) وقد قابلتهـــا القوات البريطانية بإطلاق النار جزافاً واقتحام المساكن واحتلوا جمرك السويس وعملوا على عزل منطقة القنال، وإقامة حكم عسكرى بريطانى فيها وأخذت الدوريات الإنجليزية المسلحة بالمدافع الرشاشة تجوب شوارع (بور سعيد والإسماعيلية والسويس) مستفزة الشعور الوطنى وفرضت تفتيشاً على جميع المصريين الراغبين فى الدخول إلى منطقة القنال أو الخروج منهـا مهما كانت مكانتهم فى شكل ينطوى على الإذلال والتحقير .

ولما اشتد الكفاح ونشطت (كتائب الفدائيين) كانت القطارات والسيارات تفتش فى أبى حماد والتل الكبير حيث أولى نقط الاحتلال .

ولم يتورع الإنجليز عن ارتكاب أقصى الأساليب العدوانية فى مقاومة

حركة الكفاح ، وقد نهبوا ما استطاعوا نهبه من مواد التموين التى كانت ترد لسكان مدن القنال .

وبلغ عدد الاحتجاجات المصرية على ما ارتكبه الإنجليز من مخالفات جمركية نيفاً وألف احتجاج ؛ وأخذوا يتسللون إلى داخل مديرية الشرقية فكان لهم معسكر من قبل فى (التل الكبير) فأنشأوا نقطاً حربية أخرى بجانب أبى حماد وأحاطوا ببلدتى (القرين والعباسية) وغيرها وبات الكثير من قرى مديرية الشرقية عرضة لحملاتهم التفتيشية والانتقامية ، وتمادى الإنجليز فى العسف والتنكيل وحرمان المدن والقرى من أسباب العيش .

كتائب الفدائيين .

ولقد تطوع كثير من الشباب فى كفاح الإنجليز فى القنال وألفوا من بينهم (كتائب الفدائيين أو كتائب التحرير) وقد تكونت هذه الكتائب فى القاهرة وفى المدن والقرى الواقعة فى منطقة القنال أو القريبة منها ؛ وكان لهذه الكتائب عمل إيجابى جليل فى تنظيم حركة الكفاح وبث روح المقاومة فى نفوس المواطنين ، وكانت تدرب فى القاهرة على حرب العصابات وأنشئت مراكز أخرى لتدريبها فى بعض عواصم المديريات كالزقازيق ودمنهور وفى بعض القرى المجاورة لمنطقة القنال وذعر الإنجليز من جهاد هذه الكتائب وأخذوا يبحثون عن أماكن تدريبها وتسليحها وقاموا بحملات تفتيشية فى منازل المدن والقرى الواقعة فى منطقة القنال بحثاً عن مواضع الأسلحة .

ومن الكتائب التى كان لها جهاد مشكور وجهود بارزة الكفاح ؛ كتيبة البطل الشهيد (أحمد عبد العزيز) وكتيبة (خالد بن الوليد) وكتيبة (محمد فريد) وقد تطوع بعض القواد والضباط القدامى وبعض الضباط العاملين لتدريب هذه الكتائب وفى مقدمتهم الفريق (عزيز المصرى) واللواء (محمد صالح حرب) .

كتائب هبت تلبي الدعاة وتطوى القفار وكثبانها
برمح يرن وعضب يئن ينبـــه فى مصر وسـنانها
هو الثأر أدركه الثائرون فأعلوا بمـــا أثلوا شأنها
وأنعش أرواح من فى القبور فـكادت تعاود أبدانهـــا
أطلت ترفرف فوق الجموع تحـــيي من الغيب أوطانها

وأخذ المواطنون فى القاهرة والأقاليم يتبرعون للـكتائب بالأموال لتزويدها بالأسلحة وإمدادها بنفقات مهمتهـا . وقد اشترك شباب الجامعات فى تأليف الـكتائب، ونظموا صفوفهم فيها بإشراف بعض الضباط وبعض الأساتذة، وأقبلوا على تنظيم كتائبهم بحماسـة وتضحية تدعوان إلى التقدير والإعجاب ، وعاشوا فى الخيام والمعسكرات التى أنشئوهـا فى حرم الجامعات للتدريبات العسكرية وكل ما يتصل بحرب العصابات وكانوا إذا أتموا التدريب يسافرون جماعات أو فرادى إلى منطقة القنال ليسهموا فى الجهاد ، ومـما يذكر هنا للحقيقة والتاريخ أن الحـكومة آنئذ لم تقدم للفدائيين معاونة جدية فلا هى نظمت قيادتهم ، ولا رسمت لهم خططاً منسقة بل تركتهم وشأنهم ، ولذا تسرب الارتجال إلى حركاتهم ورغم كل ذلك فقد كان للفدائيين عمل إيجابى واسع المدى بعيد الأثر فى قتال الإنجليز، فعلى أيديهم تم الاستيلاء على كثير من أسلحة الجنود الإنجليز وقتل عدد كثير منهم ونسف بعض المنشئآت فى معسـكراتهم ومستودعات البنزين والخطوط الحديدية فيها ، وكذلك بعض القطارات والسيارات وقطع المواصلات ومهاجمة قوافل الإنجليز ، وإطلاق النار عليهم فى طريقهم إلى معسكراتهم وفى تحركاتهم الحربية .

معارك القنال :

وقد وقعت حوادث دموية فى (معركة الاسماعلية) الثانية اشترك فيها الجيش الإنجليزى بدباباته ومصفحاته وطائراته ، وسقط من الجانبين قتلى وجرحى وقد

أظهر أهل الإسماعيلية بسالة فى رد العدوان ، كما استبسل رجال الشرطة وأسهم هؤلاء وأولئك فى التضحية والفداء وأخذت تجلو من الإسماعيلية أفواج الأسر البريطانية التى بلغت زهاء ألف أسرة؛ وكذلك كان الحال فى معركة (السويس الأولى) فقد أبدى رجال البوليس والمدنيين بطولة وشجاعة هما مفخرة للروح المصرية العالية، وكان للفدائيين فى هذه المعركة بلاء يستأهل الثناء فقد ألفوا من بينهم فرقة مجهزة بالبنادق والمدافع السريعة الطلقات وأصلوا النجدات التى كانت تأتى من المعسكرات البريطانية ناراً حامية واستشهد فى هـذه المعركة ثمانية وعشرون من المصريين واثنان وعشرون من البريطانيين، ومن شهدائنا الأبطال بعض النساء اللواتى شهدن المعركة مثل السيدة (شمعة عبد الله حسين) والسيدة (خديجة زكى أحمد) وتجدد القتال فى السويس فى عنف وضراوة وكان القتلى من الجانبين ومن بين شهدائنا سيدة هى السيدة (فريدة وهبة) وقد شيعت مدينة السويس شهداءها فى مشهد رهيب، وقد غطت نعوشهم بالعلم المصرى مما أعاد إلى الأذهان تشييع جنازات الشهداء فى ثورة ١٩١٩ وأخيراً كانت الجريمة الوحشية التى وقعت من الإنجليز على حى بمدينة السويس ؛ يسمى (كفر أحمد عبده) وانتهت بتدميره وإبادته من الوجود نسفته القنابل تحت حمـاية دبابات العدو ومدافعه وطائراته، واكتسحته بالألغام وكانت جنود المظلات تشعل النار ليسهل الهـدم وزال حى (كفر أحمد عبده) بهذه الوسيلة الهمجية وأضحى أطلالا فكانت (هذه الموقعة) وصمة عار فى جبين الاستعمار البريطانى قوبلت بالاستنكار فى أرجاء العالم، وأخذت تروج الصحف البريطانية للتفاهم مع مصر للكف عن الكفاح والجنوح إلى الهدنة والمساومة ولكن بغير جدوى، وعلى الرغم من أن الوزارة كانت قد منعت المظاهرات منذ يوم السادس من ديسمبر سنة ١٩٥١ إلا أن تصرفات الملك الفاسد جعلت المظاهرات العدائية ضده تدوى فى فناء الجامعات منذ الخامس والعشرين من ديسمبر وكانت نذيراً بما سيئول إليه مصير الملك والملكية

وكانت ظاهرة جديدة لم يسبق لها مثيل وقد عمت الحركة الفدائية الجامعات والشوارع والميادين لأن (أنطونى إيدن) قد أوضح فى مناسبات عدة أن حكومة جلالة الملك ستحافظ على مراكز البريطانيين فى منطقة القناة، وأصرت القيادة العسكرية للقوات الإنجليزية على موقف العدوان، والتحدى لمصر ولم تتراجع مصر أمام هذا التهديد بل استمرت فى القتال وحاول الفدائيون اغتيال (الجنرال إكسهام) فانتشرت القوات البريطانية حتى (أبى صوير) للتفتيش فى تعسف واستفزاز ثم كانت (معركة السويس) الدامية وقد ساهم الأهالى فيها بنقل الذخائر إلى البوليس المصرى والفدائيين تحت وابل رصاص الإنجليز ثم قابلوا العدوان المسلح بالمثل وانضم إلى الأهالى الفدائيون من كتيبة الشهيد (أحمد عبد العزيز) وانتهت المعركة بانسحاب الإنجليز وكان القتلى من الجانبين ومن بين شهدائنا طفل صغير هو (صابر حسين حسن) ثم كانت (معركة أبى صوير) بين الإنجليز والفدائيين وكذلك معركة (المحسمة) وفيها استشهد (عباس سليمان الأعسر) الطالب بجامعة الإسكندرية ثم قامت الحملات التفتيشية على القرى الواقعة على طريق المعاهدة بحثاً عن الأسلحة التى خبأها الفدائيون وكان التفتيش فى حملات عسكرية إرهابية؛ وأخيراً كانت معركة (التل الكبير) بحجة أن هـذه البلدة تأوى بعض الفدائيين وقد قاوم البوليس والفدائيون هذا الهجوم الغاشم مقاومة جمعت بين البطولة والمهارة فى القتال وأسفرت هـذه الموقعة عن قتل عدد من الإنجليز واستشهاد سبعة من الفدائيين منهم الشهداء (أحمد فهمى المنيسى) و (عمر شاهين) و (عبد الحميد حسن) من عزبة أبى سلطان وكانت من الشهداء السيدة (سيدة البندارى حسن) وعاود الإنجليز فى اليوم التالى الأحد الثالث عشر من يناير العدوان على (التل الكبير) فصمد لهم المجاهدون مرة أخرى ولكنهم تكاثروا وحاصروا التل الكبير وحمادة وأبو حمد وغيرها من القرى وقتلوا من وجدوهم من النساء والأطفال ، وكذلك كان الأمر فى اليوم التالى فتهدمت منازل هذه القرى من

مدافعهم وكانت هذه المعركة أعنف معركة بين المجاهدين والإنجليز ؛ وحسبك أن تعلم أنهم أسروا سبعة من المجاهدين ولم يعاملوهم معاملة الأسرى بل صلبوهم على الأشجار وأطلقوا عليهم الكلاب المفترسة تنهش أجسامهم لحملهم على الاعتراف على زملائهم ، فلما أبوا أعدموهم رمياً بالرصاص فى أحد معسكراتهم وهو عمل همجى يشير إلى منتهى الفظاعة والوحشية ؛ وفى هذه الموقعة الشؤمى استشهد الطيار البطل شهيدنا (أحمد عصمت) وقد حدث فى نفس الوقت اشتباك آخر بين الفدائيين والبريطانيين فى (القرين) وقد استشهد فيه الفدائى (مصطفى الردنى) ونعود إلى معركة (التل الكبير) التى استشهد فيها بطلنا وكيف كان استبسال الفدائيين وجنود البوليس عملا جليلا استرعى الأنظار، وقد اعترفت صحف لندن فى تعليقاتها على هذه المعركة بأن حركة المقاومة الشعبية أخطر مما كان الإنجليز يتصورون وقالت صحيفة (الديلى ميرور) لا نستطيع بعد اليوم أن نقول عن قوات التحرير المصرية المؤلفة من شباب متحمس أنها إحدى الدعايات المضحكة؛ لقد دخلت المعركة بين مصر وبريطانيا فى دور جديد واستمر القتال يوم السبت الماضى يوما بأكمله وظل الطلبة المتحمسون يحاربون فرق (الكاميرون والهايلاندوز) باستماتة عجيبة .

هذه هى المعركة التى نقف عندها فى تاريخ كفاحنا الشعبى لأن شهيدنا قد سطر فيها بدمه الزكى الطاهر آخر قصته الرائعة وحياته البطولية الخالدة .

وإذا ذكرنا هنا حياته البطولية فإننا نعنى بها مفهوم العصر فى البطولة وأنها ليست تصويراً لأعمال الفروسية والشجاعة الخارقة وتمجيداً للأخلاق المثالية والمزايا الاستثنائية التى تفرد بها عدد من الأشخاص اختصتهم الطبيعة بما لم تختص به سواهم من البشر ، فبرزوا وجوهاً رائعة عجيبة تثير الدهشة وتبعث على التقديس ؛ لأن البطل فرد فائق يتجاوز الناس فى صفاته ويسلك فى مواجهة الأحداث مسلكا مثالياً ويأتى من الأعمال ما يعجز عنه سائر البشر ويتنزه

عن كثير مما يميز الناس من نقص إنسانى أو من ضعف بشرى فإن البطل فى عصرنا ليس هو البطل الاستثنائى الذى لا قيمة حقيقية له فى تطوير الإنسانية أو إضافة كسب جديد لها ؛ بل هو ذلك الإنسان الذى تكمن بطولته فى أن يكون إنساناً حقا.. الإنسان الذى يعيش الحياة الطبيعية بكل أبعادها وهو مدعو إلى أن يواجه مواقف تبرز عندها بطولته الحقيقية ، وهو الذى يطلع بمهمته ويتحمل مسئوليته فى الحياة مستبعداً كل مثالية فارغة، مواجهاً وضعه بكل معطياته شاعراً بثقله على الأرض ، مؤمناً فى الوقت نفسه بأن عليه أن يصارع ويناضل حتى لا يرديه هذا الثقل فى الحطة والضعة ؛ ولذا لا نرى بطلا منعزلا عن وضعه عن مجتمعه عن شعبه وليس هناك من عمل إلا وله هدفه الإنسانى وله صداه فى موطنه ولن يستطيع هذا البطل أن يكسب حبنا وإعجابنا إلا إذا كان معدنه من معدننا وأنه يمثلنا حقاً ويجسدنا صدقاً ويشق أمامنا طريقاً يمكننا للمجد الحقيقى وهو يمثل أمانى المجموع وطاقاتهم فى كفاحهم من أجل المثل العليا وأهدافهم السامية؛ ومن الطبيعى أن ينبثق البطل من أعماق المجموع بعد أن يتمثل بإحساسه المرهف وإدراكه العميق كل أحاسيس المجتمع الذى هو فيه ، فالشعوب تخلق أبطالها والمجتمعات تلد قادتها وزعماءها ؛ وأخيراً ليست البطولة فى عصرنا نوعاً من السلوك فحسب بل إنها أعمق من ذلك بكثير فهى فكرة وعمل بل قل إنها أكثر من ذلك فكرة نبيلة تقوم على الإيمان بمثل أعلى يفيد الآخرين ويحقق الخير للمجتمع، وعمل دائب جرىء حكيم لتحقيق هذا المثل الأعلى أو هذا الخير والاستعداد للتضحية فى سبيل ذلك، وأن يؤثر البطل مصلحة أمته ومصلحة البشرية جميعاً على مصالحه الخاصة لأن مصلحته الخاصة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من صوالح المجموع فهى لا تتحقق إلا بتحققها وبكل هذه المقاييس سنعرض قصة بطلنا الشهيد (أحمد عصمت) الذى اقترن اسمه الغالى بهذه الحقبة من تاريخ نضال شعبنا حتى أصبح رمزاً للمقاومة من جهة، ودليلا على عقلية الاستعمار المجرمة

من جهة أخرى ، نتحدث عنه فى زحمة الأحداث التى تعانيها أمتنا العربيـة ليعلم أناس تنكروا لعروبتهم بأن فى الشجرة أصلا،وأن فى الـكنانة سهما فلن نستورد البطولات من الخارج ولن نتلقى الأمثولات من الأجنبى فنحن كما قال المتنبى :

أأطرح المجد عن كتفى وأطلبه وأترك الغيث فى غمدى وأنتجع

نتحدث عن الشهيد الذى بذل حياته فى سبيل تحرر وطنه وسيادته وسقط صريعاً قبل أن يجنى الثمار ولـكنه سقط بعد أن تحدد الطريق ووضحت معالمه ولسان حاله يقول :

تقضى الرجولة أن نمـد جسومنا جسرا فقـل لرفاقنا أن يعبروا

مولده ونشأته :

فى تلك البلدة الطيبة فى مشارف القاهرة فى (عين شمس أو هليوبوليس) فى تعبير أجدادنا الفراعنة ؛ حيث تضرب المسلة الشهيرة بروقها فى كبد السماء تروى آثار مجد الآباء وإلى جانبها بقايا المعابد القديمة وآثار تل الحصن ؛ حيث ينتهى البصر بقناة الاسماعيلية أو طريق المعاهدة—ولد ونشأ شهيدنا البطل وفى خواتيم القرن الماضى لم يكن فى هذه المحلة المباركة إلا منازل قليلة يقيم فى أحدها (الأستاذ الإمام محمد عبده) وآخر بجواره منزل(أحمد بك عصمت) والد البطل الشهيد وقد توثقت عرى المودة بين الأستاذ الإمام وبين جاره،وكان المهندس الثرى (أحمد عصمت) هو الابن الأوحد لأبوين ورث عنهما مالا وجاها فأقبل المهندس الشاب على الطبيعة أيمـا إقبال ، كما أحب العلم والعلماء وعاش حياته قسمة بين رفقة الشيخ محمد عبده،ورواد داره وبين زراعته المستحدثة وخدمة خاله الفريق (عبد القادر حلمى) حاكم السودان العظيم وناظر الحربية وقد كان خاله يخلص فى مودته له حتى زوجه كبرى بناته وجعله وصياً على بنيه بعد وفاته .

وكان الفريق (عبد القادر حلمى) مفخرة وادى النيل فى آخر القرن الماضى وفى

فاتحة هذا القرن؛فهو فى عقيـــدة الشعب وفى التاريخ بطل السودان فقد هزم الدراويش والمهدى فى كل لقاء حتى كانوا يصلون ويدعون عقب كل صلاة بقولهم:

(يارب ياقادر اكفنا شر عبد القادر) وإنك لواجد بدار (عصمت بك) تلك المكتبة التى خلفها فى ثلاث قاعات فساح ملئت بالمصاحف المخطوطة والمطبوعة والكتب الهندسية أو التاريخية أو الأدبية أو الشرعية بالفرنسية والعربية ، بلغت جميعها نحو ألف كتاب ؛ كما تجد فى كل غرفة من منزله صور فاتح السودان فى شتى مواقفه وفى ظلال هذه الذكريات كانت الأسرة تعيش وقد بقيت فى ضمير الزمان تهيئة البطل الجديد من أبطال هذه الأسرة للجهاد وللمستقبل،وقد ورث والد الشهيد هذا الثراء العظيم عن أبيه (محمد بك عصمت) من عمال الخديو إسماعيل وتتعالى به فى سمـاء الشرف (شجرة نسب) تنتهى إلى (قبيلة بنى مخزوم) فى جزيرة العرب كما كانت والدة البطل الشهيد تنسب إلى (أسرة بياض) الشهيرة العربية الأصول فى الفيوم فجمع بذلك المجد من أطرافه .

ولد الشهيد فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٢٢ بعد ابنة وغلام سبقاه إلى الوجود ولم يحل عليه الحول الرابع حتى توفى والده وفارق الحياة بعده أخوه فنشأ (أحمد) الذى سمى باسم أبيه من حداثته يتيماً ولـكنه عاش كأبناء الأثرياء غير مقتر عليه وإن أحس الصاب من يتمه لحرمانه الحنان .

ولقد ألحق بمدرسة الجزويت (العائلة المقدسة) فـكان فى طليعة أقرانه يتميز عنهم بطربوشه الذى كان كالعلم المصرى بين الأجانب، وقد أتم دراسته فيها بنيل الشهادة الابتدائية وهو فى نحو الثانية عشرة من عمره ، وكان يجيد الفرنسية ويحفظ أسير أشعارها وأذهبها على الألسن،وقد كان يحس بنزعته الغلابة إلى الحرية بالتضييق عليه فى دراسته (بالجزويت) فانطلق بعد ذلك إلى الجامعة الأمريكية حيث التربية الاستقلالية وتنمية الذات وهنا رأينا الفتى النابه فى

دراسته الابتدائية ، والذى كان يتألق ذكاء قد أخـذ يتعثر جده ولم يبق له من ألمعيته إلا الفوق فى رياضة التنس حتى صار مرموقاً بين لداته .

وكان يطرق أبواب الثامنة عشرة من عمره ومن حقه أن يدير أمواله فترك دروس الجامعة إلى دروس الحياة وإلى المطالعة فى مكتبة أبيه ، فقرأ جل كتبها الهندسية وبعض كتب الطب .

أما كتب التاريخ الإسلامى والفرنسى فقد استوعبها جميعا ، وكان التاريخ المصرى موضوعه المفضل وكان يصطحب هذه الـكتب فى تنقلاته عند الساقية وتحت تـكاعيب العنب وفى كل مكان .

ونلمح عليه فى هذه الفترة غرائز عارمة تلتمس النجاح فى إدارة شئونه فهو موزع بين زراعاته فى مصر أو المديريات وبين قضاياه ، ولـكنه مقتدر فإذا تعامل تعامل فى تسام لا يساوم ولا يماكس ولا يكفيه أن يترك الناس تعيش بل كان يسعده أن يجعل الناس تعيش معه أو من حسابه،ورغم أنه كان كبيراً فى عاطفته تتأصل السماحة فى نفسه إلا أنه كان دقيقا فى حسابه .

وحينما استشهد كان مستأجروه أعلى الباكين نشيجا وأعمقهم أسى عليه ولم يكن قد عبر حدود العشرين من عمره حتى أتقن استعمال الأسلحـة بكل أصنافها واستغل ذلك فى رحلاته التى كان يخرج فيها للصيد مع زملائه .

وقد فـكر فى الزواج قبـل أن يبلغ التاسعة عشرة ، وكان معروفا بيساره مرموقا لرجولته واستقامة طباعه وحين صار إليه أمره أعرس إلى حليلة كريمة الأصول من جيرته وعشيرته ، وراح يبنى أسرته فى فرجة من اليسر وخفض الجناح والإقبال على الحياة ، وقد ولد له فى السنوات الأولى من زواجه ولدان وابنة هم (بهى الدين وأحمد وفاطمة) فتخير لهم المربيات وكان يكرم مربية أولاده ويبجلها ويوجهها .

ولقد وجهته نزعة التقدم إلى أن يتعلم الطيران فدخل مدرسة مصر للطيران كما دخلها معه أو قبله ثلة من الشبان والأعيان تخلفوا عن الدروس واحداً بعد الآخر؛ لكنه لم يتوقف أو يتخلف يوما واحداً بل كان يذهب فى غير الساعات المخصصة له ليتعلم مع غيره فوق الساعات المخصصة له، مما يسر له البدار فى إتمام تعليمه؛ ولم يكد يحرز شهادة الطيران حرف (ا) حتى عينته شركة مصر للطيران بين طياريها بأجر جنيهات معدودة، كانت عنده خزائن الأرض يقبضها على استحباب ولو كلفه الطيران أكثر من ذلك الأجر، لأنه كسب يده لا ميراث جده ووالده.

وقد تجلى فى دراسته لشهادة (ب) فى الطيران بما فى دمه من ميل إلى الهندسة وقد كرس ساعات فراغه لها وأحال الدور الأول من بيته مدرسة للطيران يحمل إليها الأساتذة والتلاميذ ضيوفا، ويشترى لهم الكتب من مصر أو الخارج وطاوعته اللغات الثلاث التى يتقنها؛ وكان بنوه يصطافون فى الإسكندرية ويبقى هو فى القاهرة من أجل دراسته صيفا بعد صيف؛ وقد قال الممتحن لزملائه إننى فى حرج إذ أمنح الفتى هذه الشهادة فهو أصغر الطيارين سنا؛ والشهادة تخول له الرحلة على الخطوط العالمية عبر المحيطات لكن إجابته تجعلنى فى حل من منحه الشهادة وقد حمل الطيار الصغير الأجنحة المصرية فى آفاق الخطوط العالمية، فكان أمل شركته وزملائه ومعقد آمال الرؤساء إذ لم يحدث له حادث واحد فى سنوات عشر وكان رؤساؤه يندبونه للرحلات التى تعلن عن مظهر الشركة فى الخارج أو تحتاج إلى براعة فى الهبوط والصعود.

سماته وأخلاقه:

شارف الفتى حدود الخامسة والعشرين فانبعثت ينابيع الرجولة من سكناته وحركاته وقسمات وجهه، وقد كان سمهرى القوام عظيم الهامة فيه من سمات القواد ليس بالقصير ولا بالطويل ضامر الجسم فى غير نحول، أوفى إلى البياض منه إلى

السمرة نافذ النظرات غزير الحاجبين ، كث الشارب يميل وجهه إلى أن يستطيل من تحت جبهة متبدية للناظر وأنف دقيق وفم أنيق، يعلو رأسه شعر رجل فاحم السواد،أشعر الذراعين والصدر وكانت ابتسامته خصبة مؤمنة تضيء عينيه من ضياء روحه فتغمر وجوه أصدقائه ونفوسهم،وكان يتبدى فى سمات الأناقة وحسن الهندام مع أبرز آيات الرجولة كان يظنه الرائى من كبار الرياضيين أو فارساً أضمره ركض الخيل فى حلباتها ، يغلب عليه التواضع بل الانطواء وحسبه ألا يبدو عليه مظهر الثراء والجاه، وإذا مشى أبدا بدا مرفوع الصدر والرأس عالى الهامه نفاذ البصر ،وهى مظاهر ثقته بنفسه وكان يبدى رأيه فى أسلوب يسير مقل مقنع ، فى وعاء من الصراحة والمودة وكان يملك لسانه وسمعه وبصره، وكانت له صداقات بالأمراء العرب مكنت أسبابها صلاته وأسفاره،وكان مسماحا فى ضيافته كأنما كان يحسب المجاملة فرضاً عليه فقضى حياته مجاملا سباقا إلى الخير يشهد بذلك سبقه فى إتمام مسجدى(عزبة النخل والحلمية)بالقرب من عين شمس وإذا استقصيت بره بعماله بدا لك العجب العجاب .

وما كان يتحدث عن خدمه إلا باسم (المستخدمين) : وعاملهم كمستخدمين كل ساعات فراغـه مع أولاده الذين يقرؤهم القرآن ويلقنهم دروسهم ويجالس أساتذتهم أو يجلس فى بساتينه أو يزجى بعضها فى السباحة مع الطيارين فى حوض ناديه ، وكان يـكثر من دعوة ضيوفه إلى المسرح ليشاطروه استمتاعه فيسهرون ويسمرون ؛ أما أسباب متعته الأخرى فهى قراءته ورحلاته فـكانت إلى جوار مكتبة أبيه والمساجلات للرحلات والتجارب مصادر غذائه العقلى ، وكان يؤخـذ عليه انصرافه عن مصالحه المادية والمالية إلى هواية الطيران،وقد داعبه محدث ذات يوم بأن أذنه لا يقرعها رنين الذهب فتبسم ضاحكا من قوله وأجاب (ليس لى أذن موسيقية) .

ولقد كان الله معه دائماً لأنه كان دائماً مع الله يذكره حين تتحكم النزعات

أو يضرى الصبا والفراغ والجدة ، فكان طهره الذى لم يعرف الخمر ولم يقترف الميسر رغم ثرائه وعنفوان شبابه .

كلماته :

١ـ كان يرى السائحين من المطارات ينسلون إلى الهرم فيضحك ثم يرق إلى الجد فيقول (ألم يكفنا أن نعيش فى الماضى وعلى مخلفاته ؟ ألم يأن لنا أن يزور الزائرون معالم الحضارة الحديثة عندنا لقد أضحت آثار العصور الغابرة إعلاناً ضدنا مذ كانت زيارة مصر القديمة وحدها برهان موت مصر المعاصرة) ويتساءل (لماذا لا يزورون الجامعات إلى جوار الجوامع ؟ ولماذا لا نبنى لهم معالم على روح العصر فى مصر الحية النابضة التى لا ينافسها فيها منافس) .

٢ — وكثيراً ما كان يقول (إن شمس الحضارة ستشرق من الشرق مرة أخرى وكما نجح (غاندى) ونجحت الهند بأسلحة الشرق من هدى النفس سينجح (مصدق) وتنتج إيران وعندما نجد مصريا كمصدق سينجح ذلك المصرى وتنجح مصر) .

٣ — وقد دافع عن سياسة الدكتور طه حسين التعليمية بقوله (إن الذين يتهمونه بالثورة هم الثائرون على سنة التقدم وأن التوسع فى تعليم الشعب هو صيحة الحرب على العدو ، وصمام الأمن لأمتنا فليت لمصر ثواراً مثله فى الاقتصاد وفى السياسة والاجتماع فإنما منع ثورة ١٩١٩ أن تحدث كل آثارها قيامها على السياسة وحدها دون الاقتصاد والاجتماع والتعليم ، والنهضة كالطائر يجب أن تصعد فى الأفق بجمعها لا بجناح واحد) وقد أشار إلى ذلك رئيسنا المفدى جمال عبد الناصر فى الميثاق فى (باب النكسة) .

٤ — وكان يشارك تابعيه وعملائه فى كل ثمرات ثرائه على أساس فلسفته التى عبر عنها بقوله (إن ذلك هو المصلحة والوزن الصحيح للأمور لا فروسية

فيه ولا وثبات خيال ولا استعلاء ولا سخاء؛ لكنه أساس إنسانى لتوثيق علاقتنا معهم وضمان حقوقنا عندهم بدعم أوضاعهم التى ألفوها فى حياتهم الخاصة وحياة أسراتهم وهم يعبرون عن ذلك بفتح بيوتهم، ونحن فى الحق نفيدهم لتستفيد وإياهم على أساس إنسانى) .

٥ — وكان يقول (إن السعادة كالعطر لا يصل إلى حواس الغير إلا إذا عطر اليد التى تفرقه فى الناس ، وهى رقم حسابى عجيب إذا أردت أن تضاعفه فقسمه) .

٦ — وكان يرد على شاعر الإمبراطورية (كبلنج) فى قوله (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) بقوله (ويوم نعامل الغرب على استغناء سينشد عندنا صداقة الأنداد والأعدال) .

٧ — وقال عن معركة فلسطين (إن إنجلترا لا تحفل إلا بالضربات المباشرة ولم تظفر مصر منها بحق مغتصب أو بتسريح زعيم معتقل إلا بالضربات المباشرة ولن تظفر منها بشىء إلا بتلك الوسائل أو فى نفس الظروف) ثم يقول (لقد كسبنا حرب فلسطين ولو خسرناها فإنها البشير بانهيار الاستعمار ، لأن بسالة المصريين وبخاصة ضباط الحملة قد أثبتت مقدرة الجندى المصرى الحديث على خوض المعارك والجود بروحه فى نبالة واعتزاز) ويقول (إن الإنجليز بعد أن تيقنوا من ميلاد هذه الروح العالية فينا سيدركون أن يومهم قد حل وسيعملون كعادتهم على أن يولونا أدبارهم دون قتال) هذا نثار من كلمات الشهيد البطل سقناها هنا لأنها تعد بمثابة التقديم للحديث عن وطنيته العارمة .

وطنيته .

ولد أحمد عصمت فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٢٢ فهو من أبناء مصر الحديثة التى رأت النور فى آفاق ثورة سنة ١٩١٩ ورضعت لبن النهضة التى تعهدها

(مصطفى كامل) ، (محمد فريد) فى فاتحة هذا القرن ، ولم تكن السنون تتقدم بطائفة من الشبان فى تلك الفترة من التاريخ إلا استفحلت بغضاؤها لهؤلاء الباغين على أمتنا الغاصبين لحريتنا .

وكانت صراعات الأحزاب وفساد الحكم، للفساد السياسى وسيطرة الإقطاع وفى أخريات هذه الأيام بلغ (أحمد عصمت) مبلغ الرجال وكان الزعماء مذعورين من مناورات بريطانيا بأسطولها فى قناة السويس،ولاح غصن الزيتون تحت عنوان إلغاء الامتيازات الأجنبيةالتى جعلت منذ تصريح الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٢٢ مفتاحا تفتح به مغاليق الشر على مصر،فوقعوا معاهدة ١٩٣٦ ولم تمض أربعة أعوام عليها حتى كان بطلنا قد بلغ رشده وأضحى أمل أسرته وأمته شديد النقمة على الغاصبين شديد الرغبة فى المزيد من الحرية،وفى عام ١٩٣٩ كنا فى حالة حرب من أجل الإنجليز وغزيت مصر من أجلهم مراراً وأصبح الجيش البريطانى تحتل فيالقة أرض الوطن؛ فكان غمة على البلاد وكنت تسمع الجدل بين الداعين بالنصر لأعداء الإنجليز وبين الفريق الآخر المنتصر لهم وكان شهيدنا ممن يرجح الرأى الثانى لأنه كان يقول (إن جولتنا مع الإنجليز قصيرة والظفر فيها مأمول؛لأننا جاوزنا معهم أكثر المدى،أما مع الألمان أو الطليان فستكون فى بداية شوط جديد مديد) وانطلق الإنجليز يجيعون مصر ويقتطعون أقواتها ويتجرون فى ذخائر الحرب وكانت (عين شمس) مأوى القصاد فى هذه التجارة الحرام لما كان يكتنفها من المطارات والمعسكرات وفى تخومها ، طرائق القتال وكانت عين شمس مقام (أحمد عصمت) فكان هذا الفساد مشغلة نفسه،وباعث حقده وأصيبت معاهدة ١٩٣٦ إصابة مباشرة وبدأنا معركتنا السياسية مع الإنجليز ولم يتأثر (أحمد عصمت) بخلافات الأحزاب .

ولما جاء دور فلسطين اشتمله الانبعاث الوطنى هذا إلى عاملين فى خصوصية شخصه أولهما : حق الجار والعشير ممن يمتون إلى فلسطين وثانيهما : اقتداره على

ما يرجى لديه من الفضل فقليلون كانوا مثله ، علما بشئون السلاح وقدرة على الحصول عليه فجاد الشهيد بجهوده وأهمته هموم فلسطين؛ فإذا لم ترقه الأخبار التى كان يترقبها حتى الصباح ضاق بالحياة وإذا سرته أذاعها فى بنيه وهو يلقى عليهم (دروس ضرب النار) وهو الذى أبى أن يعلمهم فى المدارس الأجنبية وأصر على أن يتعلموا فى المدارس المصرية،وكان يكثر الاجتماع بخلصائه وأصدقائه فى بساتينه يناقشهم فى السياسة الدولية والداخلية وصراعات الأحزاب مناقشة من يقرأ الصحف الأجنبية والمصرية ويستمع إلى كل إذاعات العالم ، فكان يتضح منه مبلغ مد الوطنية ويتسع مدى التضحية لدى المصرى الكبير إذ يهب نفسه لقضية بلده .

وقد كان الشباب المصرى الذى يمثله (أحمد عصمت) يعرف حق المعرفة أن انتصاره على الاستعمار فى فلسطين أو مصر حياة له ، حياة لآماله وأمانيه ، حياة لمقدراته ومقدرات أبنائه وأحفاده وعود لحقوقه المسلوبة وأرضه المغتصبة وأمواله وخيراته المنهوبة .

وقد ازداد (احمد عصمت) نضجا ، وعلمته الأسفار أن يذيب ذاته فى ذات بلاده . والمصرى فى أسفاره هو مصر ذاتها ، وقد تملك عصمت بعد حرب فلسطين التعصب لكل ما هو مصرى وأحس أحاسيس فروع الوطنية المتأصلة فى قديم تاريخه،تسيطر عليه تلك الثقافة التى يرث بعضها أسباط الأسر الكبيرة، وكانت تربيتهم وليدة الدم الذى ينحدر فى أصلابهم والتاريخ العائلى الذى يلقنونه والمسئولية التى يندبون أنفسهم لها .

وقد انشغل(أحمد) فى تلك الفترة بالشئون العامة لأمته كل الانشغال ، وكان يحرص على (إبداء آراء إنشائية) ، وأضافت رحلاته إلى آرائه الوطنية معارف ضافية عن البلاد العربية فكان يعرف من هواهم معنا ومن يظنون الظنون بنا وكان يقول فى هذه الآونة :

(يجب أن نعول على أنفسنا . لقد أثبت الجندى المصرى جدارته من عهد (تحتمس) و (رمسيس) و (صلاح الدين)، ورددنا التتار والصليبيين وحدنا فى الشرق والشمال ، فيجب أن نبنى سياستنا الخارجية على أساس مستقل) وهذا دستور ثورتنا المجيدة وقد كان (لأحمد عصمت) نفسه ثأر مع جيش العدو أقدمها حساب جده بطل السودان،منذ نزعت من يمينه رايات النصر وأعيد إلى مصر . وكان كلما أرجع بصره إلى الصورة المعلقة بداره للبطل المصرى (عبد القادر حلمى) دوت فى دمه صيحات الانتقام ، وكان قد كسب خبرة فى الصمت أيام تجميع السلاح للمتطوعين ، وفى تعهد ما تنطوى عليه أضالعه من مقت للانجليز وأضحى مخرج السخط من صدر هذا الرجل الهندسى اليد والنقل إلى يده ويد غيره أعمالا لا أقوالا . وهنا تألف منه ومن بعض أصحابه جماعة ظـل نشاطها خافياً وكانت مهمتهم استحضار السلاح من الخارج فى إبان طيرانهم ، وأخذ يدعو إلى المقاومة السلبيـــة بمقاطعة المنتجات الإنجليزية ، واستحماس الأفراد والجماعات إلى أداء واجبهم فى كفاح الشعب بعـد إلغاء المعاهدة وأخذ يجمع التبرعات لشراء السلاح ، وإن لم يعرض برامجـه إلا على شركائه فى التنفيذ . ولقد كان الخبير الثبت فى شئون السلاح وزملاء له يتفرقون فى وجوه الوادى ، ثم يجتمعون فى صحراء السويس وفى أرباض عين شمس أو فى جوار الهرم وكان يعلن أنه يبرح مصر فى طيرانه والحق أنه وصحبـــه يسارعون بسياراتهم فى جهاز المجاهدين .

وفى نوفمبر عام ١٩٥٢ سجل نفسه بين(الفدائيين) وأخذ يمدهم بماله حتى رآه أحد إخوانه يدفع مائة جنيه وفى يوم آخر خمسين جنيهاً ومضى مع الركب المجاهد يجمع الأسلحة من كل مكان،وكان من حماسته يفوته الحذر حتى نبهه إلى ذلك زميل له من موظفى المطار قبل استشهاده بأسبوع . وكم كان يسعده مايرى من مواكب الفدائيين من الجامعة وكأنها مواكب أعراسه . ثم يقول (الجامعة

هى مصر المستقبل ، وما دامت مصر المستقبل قد آثرت الموت على الاستعمار فلن يتاح له أن يدس السم للجيل المقبل ، كما سمم الأجيال التى سبقت) .

ثم يقول : (رب ضارة نافعة فستكسب مصر المعركة بيدها ولن تكسب الاستقلال بمعاهدة تعقدها وإنما تكسب كما تكسب كل الأمم بالأرواح التى تفقدها) ثم يقول أخيراً (إن مصر لن تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال) وحسبنا مراجعة حسابه بعد استشهاده، لندرك مدى مشاركته الفعلية والمالية فى حركة الفدائيين ؛ فإنه لم يبق له يوم استشهاده فى المصرف إلا مائتان من الجنيهات صرف منها لنفسه صباح استشهاده عشرة جنيهات ، كما انصرف لأهله خمسون أخرى فى اليوم ذاته، وكان ذلك فى نهاية موسم الإيراد وإيراده السنوى بضعة آلاف لكنه لم يشأ أن يدع لصغاره مالا ومصر أحق به .

وكم شقت على (أحمد عصمت) مخزاة كفر (أحمد عبده) وآده الجزع وأخذ يعبر عن جراحات نفسه بكل مايملك، وكانت مصادر الأنباء فى السر أو فى الجهر تطالع الناس بهول المعركة فى (التل الكبير) كما أسلفنا فى مقدمتنا . وهنا ولد للوطن واحد من هؤلاء الصديقين ، وكان ذلك حينما كانت جنازة شهداء القاهرة تسير فى طرقها وكانت مصر تتأثر لشهدائها فكانت قصة اليوم الأخير للشهيد البطل :

أبى رق الحياة فمات حراً ... وأبلغ نفسه عن ذلك عذرا
وأقسم لا يكون حماه نهبا ... مباحا أو يموت طوى فبرا
وما يدريك أن طواه يوما ... يكون لقومه بعثا ونشراً
فيالك ميتا أحييت شعباً ... وشدت له على الأيام ذكرا

اليوم الاخير :

كانت منطقة الأهرام مكاناً يتلقى فيه الفدائيون السلاح وهناك فى يوم الثانى عشر

من يناير غادر (أحمد عصمت) بسيارته رهطاً من أصدقائه فى مشرق النهار ثم عاد إليهم عنـد الأصيل ولم ينبئهم بأسباب غيابه ، وعادوا إلى القـاهرة وقضى ساعات من الليل قبل عودته إلى بيته حتى إذا دخلها وآتوه بالعشاء طعمه كعادته فى يسر وانشراح وحرر لأهـله (الشيك) بمبلغ خمسين جنيهاً ولم يسلم مفتاح السيارة لعامله لإعدادها حتى لايظهر على ماتحويه، وأصبح كـكل صباح يستمتع باللحظات الهنيئةالتى يعيشها ثم غادر داره ولم تبدر منه لأهله ولا لولده وهم يتوجهون إلى المدرسة بادرة تنم عن حزن ؛ ثم انطلق بسيارته إلى القاهرة ليتسلم من مصرفه عشرة جنيهات فى التاسعة صباحاً ثم قفل راجعاً إلى المطار فى ألماظة يتناول الشاى فى أمن واطمئنان ؛ ثم يمم طريق (عين شمس) وانحدر إلى قناة السويس فبلبيس بعد أن ترك لصهره ولمصر معه بأجيالها المتتابعة وصية : (أخى حسين: إن حبى لوطنى هو الذى حبب إلى سفك الدماء، دماء الغاصب المستعمر البغيض ؛ فذهبت إليهم غـير منتم إلى هيئة أو جماعة ، ذهبت إليهم بدافع إلهى وإيمان قوى ؛ ذهبت إليهم مسروراً فرحاً وكأنى ذاهب إلى رحلة صيد مثل الرحلات التى كنا نقوم بها .

فإن مت فأعلن إلى كل مصرى أنى شاب متزوج ، ولى ثلاثة أطفال ، ولى أمى وأخواتى ، ومع هذا فقد ضحيت بنفسى ليعيشوا هم أحراراً فى بلدهم فالحرية لا تمنح ولـكنها تؤخذ بأعز التضحيات . فإلى اللقاء فى كلتا الحالتين إن مت أو عدت .

(أخيك أحمد)

تلك كانت آخر الـكلمات التى جرى بها قلم (أحمد عصمت) ولعلها كانت آخر مايتردد فى وجدانه ، هى الـكلمات التى صحبته وبرحت به وعذبته عندما طوت عجلات السيارة الثرى المصرى إلى حيث المعارك المستقرة فى منطقة

(التل الكبير) سار فى طريقه إلى الإسماعيلية وبلغ شاطىء المجرى الذى ألف أن تسير سيارته عليه فى الأيام الخالية فى أرض خالية من العدو ، فإذا المكان لأول مرة تغزوه قوات إنجليزية حاشدة بعدما فعل الفدائيون الأفاعيل بهم فى الصباح الباكر ، وكانت القوات المعادية تنقل قتلاها على القنطرة العائمة التى مدوها منذ ساعات حين وصل (أحمد عصمت) ووراءه بضع سيارات منها سيارة ركاب كبيرة ملأى بالراكبين ، فإذا بالسيارة المصرية ، تتوسط معسكر العدو ، أمام نقطة تفتيش استحدثها العدو فى ذات المكان .

مكث (أحمد عصمت) فى سيارته حتى قدم الجند فقدم لهم جواز قيادة الطائرة وجواز سفره المصرى وكان يرتدى رداء الطيارين وعلى كتفه جناحان ونصف جناح ، وطلب جندى بريطانى تفتيشه وتفتيش سيارته فرفض أن يفتشه وأصر الجندى ، وأصر هو واستعلى على التسليم بحق التفتيش فى أرض الوطن ، وهنا أيقن الجندى أنه يلقى سيداً فوق مستواه العسكرى ، بل فوق مستواه البريطانى والاستعمارى، بشخصيته التى بلغت ذروتها وعنفوان عزتها فى لحظة ميلاد البطل،فدعا الجندى القائد فإذا هو قائد منطقة (التل الكبير) بتمامها الذى أطلقت عليه الصحف قائد (مذبحة التل الكبير) قد قدم ومعه ياوره لتجرى المقادير قضاءها فيهما؛ ها هو ذا القائد كله بين يديه ، وهو رأس الجيش يعدل الآلاف وعشرات الآلاف والضربة فيه تصيب إنجلترا فى الصميم وما (عصمت) إلا مصر بشمائلها وفضائلها وما (البريجادير) ، إلا إنجلترا فى عنفوان عدوان الاستعمار وتراءت أمام البطل رؤى التاريخ الذى كان من حفاظه ورواته فبدا له أن مصر وإنجلترا تتصاولان فليكن السيد الجدير بفضائل حياته العظيم فى محياه ومماته وقد تذكر نشيد الشهيد الذى كان دائماً يرتله ليمثله :

عبس الخطب فابتسم وطغى الهـــول فاقتحم
رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقـــدم
لم يبـال الأذى ولم ينســـه طارىء الألم
نفسه طوع همـــة وجمت دونهـــا الهمم
تجمع الهائج الخضم إلى الراسـخ الأشم
وهى من عنصر الفـداء ومن جوهر الـكرم
ومن الحق جـــذوة لفحهـــا حرر الأمم

استشهاده

وقدم (البريجادير) وياوره وأحد حراسه فحين رمقه البطل ترجل من سيارته وتراجع إلى الوراء خطوات معجلات وارتقى بسيارة نقل الركاب فدخلها وقذف حافظة نقوده وأشياء أخرى ، قائلا لركابها أعطوا ما فى هـذه الحافظة لشخص مستحق ، ثم شخص من فوره إلى القائد فى لحظات وتبادلا كلاماً قصيراً سريعاً لم يسمعه الشهود، وإنما شهدوا الانفعال من قائله وعن للشهيد البطل أن يبارزهم مبارزات (على وحمزة وأبى عبيدة) بين الصفوف إذ يلتقى الجمعان فى الزحوف وليصرخ فتى مصر فى وجه العـــدو صرخات (عمر بن الخطاب) فى وجه (أبى سفيان) ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار وليقـذف فى وجه بريطانيا بكلمة مصر الأخيرة فلن نسمعها من أحد كما نسمعها من لسان بطل (لقد جربنا سياستنا معكم فكانت تنازعاً وفشلا، وجربنا سياستكم معنا فكانت قهراً وخديعة فلم يبق لنا معكم إلا سياسة واحدة ؛ هى أن ترحلوا وإلا فإنها الحرب من كل طبقات الشعب ، فأما نحن فسنموت لنحى وأما أنتم فإلى عذاب غليظ) .

ثم ناداه بهتاف ترن فيه الجرأة والفداء والتصميم :

إيه يا سـارق الشعوب تقـدم ساحة الموت واللقاء تقـدم

ههنا ههنا حساب عسير ولقاء مر وشعب تجهم
وعناق مع المدافع حتى الفجر حتى أراك شلوا محطم
مالعينيك راغتا تتحاشانى وفى ثغرك الحديث تلعثم
أنت مهما حشدت أسطولك الراعد ملء البحار لا أتهدم

وهنا تواقع الفريقان ووانى بطلنا المسدس الذى يحمله فى توفيق وتسديد فبدر (البريجادير) برصاصتين فى قلبه ؛ فخر مضرجاً بدمه وثنى باثنتين فى قلب ياوره الضابط فصرعه مثله وأطلق فى نفس الوقت اثنتين أخريين على الجندى البريطانى فتهدهد الثلاثة صرعى يخورون لم تخطىء رصاصة واحدة مستقرها ، ولم يكد الثلاثة يقعون لوجوههم ويخلدون إلى الأرض حتى أراد أن يوالى ضرباته لولا أن عاجله الإنجليزى بضربة مدفع فخر صريعاً شهيداً ؛ وهو يناجى ربه كما ناجاه موسى عليه السلام (وعجلت إليك رب لترضى) وانتصرت روح مصر فى التل الكبير .

وهكذا استشهد فى وقت نحن أحوج ما نكون إلى أمثاله من أهل الكفاية والبسالة والوطنية ، فكان استشهاده خسارة لا يعوضها إلا يقيننا أن الحياة دائمة العطاء ،وأن الشعب الذى استنبت هذا الرمح المصرى الأصيل ليقوم حارساً يقظاً على الأرض والعرض والتراث — ليقدم الرماح تشرع فى وجوه الباغين وليصون الحرية والحياة على هذه الأرض .

وبعد أن انقشع الإنجليز عن المكان حملت عربة الإسعاف جثمان البطل وكأنها تحمل إلى مصر كلها أعلى قيمها المعنوية مجسدة فى رفاته الغالى ، وحمل إلى المستشفى الأميرى بالزقازيق وكانت بطاح الشرقية كلها ترثى الشهداء بتشييع الجنازات وتلاوة القرآن فى السرادقات، وأبت الزقازيق إلا أن تحتفل به عندما وصل بهتاف الفدائيين (الله أكبر . . . . الله أكبر . . . . والنصر لمصر) ،

وبترديد ذكرياته . ومر جثمانه ببلبيس فى جوف الليل فانبثق فيه شهداؤها وبلغ القاهرة بعد منتصف الليل :

وأقبلوا يحملون (أحمد) وضاح المحيا مضرج السربال
شـــهد الله أنهم حملوا غياث مستصرخ وليث صيـــال
من رأى قبله مغيراً بآحاد على ألف غاشم ختـــال
وهو لو حاول الزيال تنحى كبرت نفس (أحمد) عن زيال
شق جنح الظلام يمشى إليهم رابط الجأش مشية الرئبال
قائلا للحياة غـــيرى غرى قائلا للنعيم غـــيرى وال
ليس ما يشترى بغير الدم حـــر بحرية ولا استقلال

واحتشد أبناء الوطن حكاماً وشعباً وجيشاً ؛ ليقيموا الدليل فى وجـــه الاستعمار على أن البغى والعدوان لا يزيدان الأمة إلا حقداً على أعدائهـــا وتمسكا برســـالة شهدائها ، وشيوخ الوعظ يستنهضون الهمم من مثاله العالى وأطلقت البلدان على شوارعها اسمه ، وسمت شركة الطيران طيارة لها باسمه ، وسمى الآباء مواليدهم باسمه ومنهم من كان فى باريس .

وأعلن شباب الجامعة إقامة تمثال للشهيد ، وسمت بلدية القاهرة باسمه أكبر الشوارع فى منطقة عين شمس (شارع الشهيد أحمد عصمت) .

وظلت الصحف كما قدمنا أياماً طوالا تفيض فى ذكر أمجاده وتمجيد أخلاده وأرخ له فى كتاب قيم الأستاذ الكبير عبد الحليم الجندى (من أجل مصر — البطل أحمد عصمت) .

وقد كان العمدة فى المراجع التى استندت إليها فى إخراج هذا الكتاب .

وهكذا لا زلنا نمجد ذكراه لأنه آمن بفكرة قضى فى سبيلها ، فكرة خلقت مفهوماً جديداً أطاح بخرافة الأخـــلاق السياسية القائمة على الخداع

والتضليل لتحل محلها السياسة الأخلاقية الناطقة بالصدق والجاهرة بالحق نذكره لنبارك الشعلة التى أزكى أوارها فما تخبـــو ؛ ونعود بالذكرى كل عام لنستنشق منها عبير المجد والخلود من ثرى قدسى ، فداه بروحه ورواه بدمه نذكره وقد أسفر الصبح الذى أعاره نور عينيه حين انطفأت فيه جذوة الحياة نذكره ونحن نهتف: لقد أدركنا الغاية ورفعنا راية الوطن العربى رفيعة كالشمس منيعة كالطود .

كتلة من لهـــب ... فى سمـــاء العـــرب
ولواء من هـــدى ... وشعـــاع من نبى
يا شهـــــيدا دمه ... قال للأرض اشربى
أنت إن لم ترتـــو ... من دم الحـــر الأبى
ذل فيـــك العـربى ... واســـتبد الأجـــنبى

واخيرا :

وأخيراً سنجعل من ذكراه فى كل عام محفلا نزف إلى شهيدنا البطل بشرى تحقيق الأمانى التى مات من أجلها، نزف إلى الشهيد الحى موت الاستعمار الأنـكد، نزف إليه أننا نلطم فى كل يوم أساتذة حقوق الإنسان لطمات تعلمهم معنى حقوق الإنسان ، نزف إليه تفتح أزهار الدوحة التى وهب دمه لها دوحة الحرية التى غذاها قبـله بدمائهم مئات الشهداء، وغذاها بعده بدمائهم وما زال يغذيها حتى اليوم مئات وألوف الشهداء، نزف إليه أننا سنظل نـكافح الوحش فى الإنسان دفاعاً عن كرامة الإنسان، نزف إليه أننا الأمناء على العقيدة المقدسة التى قضى الشهيد يذود عن حياضها والرسالة الخـالدة التى عاش لها ومات فى فى سبيلها؛ وتلك هى الأمانة التى أسلمها رفاقه لتـكون لهم حمى ويكونوا لهـــا سياجاً ويعيشون فى ظلها ويستميتون فى حفظها وتمجيدها ؛ وأنه سيظل فينا فـكرة تنمو وتقوى وستقوى على الاستعمار وعلى الزمان وقد آتت خيرها

حرية ووحـــدة وسيادة ؛ وأخيراً نزف إليه فى نهاية كل عام يمضى على استشهاده أن الشعب الذى أحبه وافتقده يحقق فى كفاحه الشريف الظفر بعد الظفر على الاستعمار — والقومية العربية تمضى انطلاقتها الجبارة من نصر إلى نصر يقودها رائدها الظافر الرئيس المفدى جمال عبد الناصر ؛ وأخيراً نحييه ونمجده بنشيدنا .

هذا الدم القـــانى الأبى لروحنا قـــوت وذكرى
كنز فضضت ختـــامه فغدا سواد الليـــل فجرا
وسرى الضياء مزغـــردا وقوافل الأحرار تترى

* * *

كنز نثرت خضيبـــه وعلى قنـــاتى قد سكبته
رويت تربتهـــا فروتك العلا مجـــداً حويته
وتركتنا نحن الظمـــاء نروم وردا قد وردته

* * *

أجل أيها الشهيد البطل : أنت روح أمين فى رحاب رب كريم فلتنم هادئا مع الصديقين والشهداء ؛ فإن الفـكرة التى عشت من أجلها تزهو ، والدعوة التى استشهدت فى سبيلها تزدهر ؛ والايمان بالفـكرة والدعوة قد أصبح دينا للأحرار .